دار مؤمنة

للأستاذ محمد سعيد العريان

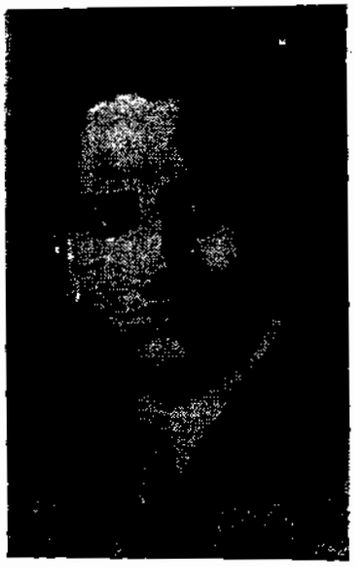

« ضلّت البشريةُ إن كان هذا مَبلغَها من العلم بالله ! »

همس بها « زيدٌ » فى أذن صحابته فالتفتوا إليه مذعورين يسألونه الصمت والحذر ! .

هذه بطون قريش جميعاً فى عيد لهم عند صنم من أصنام الجاهلية مُلبِّين ضارعين يعظّمونه وينحرون له ما كفين عليه . ذلك شأنهم فى كل عيد..

وأولئك أربعة نفر من قريش قد اجتمعوا لغير ما اجتمع آباؤهم وأبناؤهم وإخوتهم من سائر قريش ، ينظرون إلى القوم فى ضجيجهم حافين حول المعبود الأخرس لا يتكلمون ، وعلى شفاههم بسمات ، وفى أعينهم نظرات يخافتون بها ، وفى صدورهم رغبات مكبوتة ، لو تَأتّى لهم لأهْوَوْا على هذا المعبود فكبُّوه على وجهه جُذاذاً محطّما !

وانتبذ الأصدقاء الأربعة ناحيةً يتناجون فى همس ، وإن المكان ليضجّ بمن فيه بين داعٍ ومُلَبٍّ وسائل ومستغفر . وعاد الرجل يقول لصحابته :

« أما والله إنكم لتعلمون ما قومكم على شىء ؛ لقد أخطئوا دين أبيهم إبرهيم . ما حَجَرٌ نُطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء ! »

ويؤمّن صحابته على ما يقول

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، من بنى عدى بن كعب ؛ وأولئك أصحابه : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحارث .

أربعة نفر أضاء الله لهم على حين غفلة وضلال ، فسبقوا قومهم إلى التوحيد والإيمان بالله ؛ وجلسوا يداولون الرأى بينهم ، فأجمعوا أمرهم على أن يتفرقوا فى البلدان يسألون أهلَ العلم ما يعلمون عن دين إبرهيم . . .

* * *

وأقام زيد بن عمرو بمكة زماناً ، معتزلاً قومَه وما يعبدون من دين الله ؛ لا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يخشى أن يباديهم بالعيب على ما هم فيه ، وحرّم على نفسه ما أحلّوا لأنفسهم من الميتة والدم وما ذُبح على النُّصب .

وعرف القرشيون ما أجمع عليه أمره ، فاعتزلوه وخلّوا بينه وبين نفسه ، لكنه لم يخلُ بينهم وبين أنفسهم ؛ فإنه ليقصد إلى البيت فيسند ظهره إلى الكعبة يقول : « يا معاشر قريش ، والله ما منكم على دين إبرهيم غيرى ، وإنكم لتعبدون ما لا يغنى عنكم من الله شيئاً . يا معاشر قريش ، إنكم لتأتون المنكر ، وتقارفون الشر ، وتئدون البنت ، وتكفرون النعمة . يا معاشر قريش ، أيُّما رجلٍ منكم هم أن يقتل ابنته خشية إملاق فأنا أكفيه مئونتها. يا معاشر قريش . . . يا معاشر قريش . . . »

فإذا فرغ من دعوته وجّه وجهه لله يقول : « لبّيك حقًّا حقا ، تعبُّدًا ورِقًّا ، عُذْتُ بما عاذ به إبرهيم . اللهم لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحب إليك عبدتُك به ، ولكنى لا أعلمه . . . »

ثم يسجد على راحته ويقول :

أنفى لك اللهمّ عان راغمُ مهما تجشّمنى فإنى جاشمُ

ولم يزل زيد على ذلك : يذكّر قومه ويعيب عليهم ما يعبدون ، حتى ضاقوا به ؛ فأجمعوا على نكايته وتربّصوا به الشر ؛ ثم ما زال به عمه (الخطّاب بن نفيل) يؤذيه وينال منه حتى أجاءه إلى (حراء) لائذاً بالله مستجيراً ؛ فوكل به الخطاب شباباً من سفهاء قريش يأخذون عليه الطريق وينالونه بما يكره إن همّ أن يعود إلى مكة ، خشية أن يُفسد عليهم دينهم ويتأثره بنوهم . وكانت زوجه فيمن كان من عيون الخطاب عليه ، لا يكاد زيد يهم أن يدخل مكة حتى تُؤذِن به الخطابَ فيقف له ؛ ثم يتناوله

السفهاء من شبابهم بما يقدرون عليه حتى يعود على وجهه !

رجل فرد فى وجه أمة ، قد برئ منه أهله ، وتمردت عليه زوجه ، وتذامر سفهاء الإنس وشياطين الجن على مناهضته والوقوف له ؛ ولكنه من قوة الإيمان بحيث يغالب ما لا غلبة عليه !

وأىّ قوة فى الأرض تنال من الرجل يعمر قلبه الإيمان ؟

... وأرادوه على أن يلزم مكمنه من الجبل لا يبرح ، لا هابطاً إلى الكعبة يسبح الله فى البيت الحرام ، ولا مُصعداً يلتمس أسباب المعرفة فى بلاد الله ؛ ولكن صوتاً من وراء الغيب يهتف به ، ونوراً يتنوّره على بعد يضىء بين يديه ، وإيماناً يعمر قلبه يذلّل ما يتكاءده من عقبات على الطريق .

كان يؤمن إيماناً لا شك فيه أن للكون رباً غير ما يعبد الخطاب وبطون قريش ؛ هو رب إبرهيم وموسى ؛ فمن ذا يهديه الطريق إليه ؟

... ووجد زيد غفلة من حراسه فأفلت يقصد قصده ، متنقلاً بين الموصل والجزيرة إلى بلاد الشام ، يسأل عن دين إبرهيم ويبتغيه

ومضى تتقاذفه البلاد يستطلع أنباءه بين أحبار اليهود ورهبان النصارى ؛ فما منهم إلا من يبشره بنبى قد أظلّ زمانه ، يبعثه الله بدين إبرهيم فى أرض الحجاز !

يا ناقُ سيرى عَنَقاً فَسيحاً إن نبياً قد أظلّ زمانه يبعثه الله بالهدى ودين الحق فى أرض الحجاز . يا ناقُ هذا سبيلك إلى الوطن النائى يجمع شملك بالأحباب من آل عدىّ بن كعب فى أرض الهدى والسلام . يا ناقُ هذا فجر يوشك أن ينبثق بالنور فسيرى بى إليه أقبس من نوره نوراً لقلبى وسلاماً لروحى . يا ناقُ هذا يومك المأمول تبرق شمسه فى حواشى الأفق فأبلغينى مأملى قبل الغداة .

ذلك زيد بن عمرو بن نفيل فى طريقه إلى مكة يسعى نوره بين يديه إلى أمل يرجوه ، فإنه ليحدو بعيره مغتبطاً جذلان أن يعود إلى وطنه ومرتع صباه فيظفر بالحسنيين من لقاء الأهل والولد وصحبة النبى القرشى الذى أظلّ زمانه ؛ وإنه ليغذّ السير وفى نفسه شوق ولهفة ، وعلى لسانه تسبيح ودعاء !

وانطوى الطريق تحت أخفاف البعير الذى أنضاه السرى وجهد السفر ، فلما صار على قربٍ قريب من أرض الحجاز وأوشك أن ينعم بلقائه الأهل والولد ورؤية النبى الذى قطع مفازة الحياة سعياً إلى لقاه — عَدَا عليه مَن عدا من أهل السبيل فصرعه قبل أن يبلغ حيث يريد ، فإنه ليقول وهو يلفظ أنفاسه : « اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم ! » رحمك الله أبا سعيد !

* * *

... وأشرق الصبح على أرض الحجاز ، وفاض النور من غار حراء يغمر بطحاء مكة ويسيل سيل العرم فيمحو الظلمات ويدخل منه فى كل دار قبس يضىء . وداعبتْ أشعةُ الصبح الضاحك نافذةَ الدار التى آوتْ زيدبن عمرو بن نفيل عُمُراً من عمره ، ثم هجرها ساعياً إلى الله يبتغى الوسيلة إلى دين الحق ، فكان ولده سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب — من السابقين الأولين فى الإسلام!

وعاد النور والإشراق إلى الدار التى يُعْزَى إليها أولُ مذكر بدين إبرهيم على حين غفلة وضلال . وكان إيمان سعيد واستجابته لدعوة الحق امتداداً لدعوة أبيه فى الجاهلية وصفحةً مشرقة من التاريخ تنضمّ إلى صفحات !

ثم دار الفلك دورة ، وإذا فتى عارمٌ من فتيان قريش يدخل دار سعيد متوشحاً سيفه ، وفى عينيه شرٌّ وعلى لسانه وعيد ، فما إن رآه سعيد وزوجه حتى سكت القرآنُ وخَفَتَ الصوت وانكمش بعضٌ فى بعض ؛ وأوشكت أن تنقض صاعقة تزلزل أركان الدار المؤمنة...

يا عجبا ! ما بال هذا الفتى قد نسى ما جاء له وَرَقٌ بعد عُرام وعنف ؟ هل كان يقصد إلا هذا الفتى العربىّ وزوجَه ، أن ينالهما بأشد الأذى على ما صَبَآ وفارقا دين قومهما ؟

ها هو ذا فى موقفه منهما خاشع الطرف يتلو من صحيفة فى يده :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طٰهٰ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمٰوَاتِ الْعُلَى ... »

فما يكاد يفرغ من تلاوته حتى يلتفت إلى خَتَنِيه سعيد وأختِه فاطمة بنت الخطاب يقول :

« دُلاَّنى على محمد حتى آتيه فأسلم ! »

ذلك عمر بن الخطاب وتلك دار سعيد بن زيد بن عمرو ؛ دخلها دخول الغائك المتقحم لا تهدأ نفسه إلا أن يريق دما ؛ فما احتوته الدار حتى كان عمرُ غيرَ عمر !

إن فى بعض الأمكنة لَسِرًّا يهمس ، ونجوى تخافت ؛ وإن فى هذه الدار ...!

* * *